مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ المُزَّمِّلِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة المزمل

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة المزمل

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠ ﴾

ابتدأت سورة المزمل بمخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم، بقوله عَزَّ وجل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ أي: يا أيها المتلفف، والملتف والمتغطي بثيابه. قال قتادة رحمه الله تعالى: هو الذي تزمل بثيابه[١] فيا أيها المتزمل بثيابه ﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ أي: قم إلى الصلاة في الليل، مع استثناء اليسير منه للراحة ﴿ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ بما يفيد أن الأصل هو قيام الليل، ويُستثنى منه القليل ﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ وهو تكليف له عليه الصلاة والسلام بقيام جميع الليل إلا اليسير الذي هو القليل منه. مما يبين عظيم ما كَلَّف اللهُ تعالى به رسوله صلى الله عليه في بداية الأمر. وقيل: إنما كان مفروضاً عليه دونهم. وقيل: أن مدة فرضه سَنَة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان بين أول ﴿ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ وآخرها سنة. وقيل ستة عشر شهراً، حكاه الماوردي[٢] مما يبين أن قيام الليل بتلك المدة من الليل كان فرضاً على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم خفف الله تعالى عنه كما سيأتي في أواخر السورة.

وقد بدأ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم بياء النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ والذي يحمل في دلالته الاعتناء، وشد الذهن، بلفت الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بحزم وجد فيما تضمن من توجيه. وقد خُوطِب عليه الصلاة بدلالة ﴿ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ الملتف والمتغطي، وفي العدول عن خصوصية النبوة، وعن اسمه صلى الله

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/٣٥٧)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/١١٣)

عليه وسلم إلى ﴿ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ ما يفيد التلطف. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: فإذا نُودِي الْمُنَادَى بوصف هيئته من لبسه، أو جلسة، أو ضجعة، كان المقصود في الغالب التلطف به، والتحبب إليه، ولهيئته. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب (قم أبا تراب) [١] [٢] ولحذيفة بن اليمان (قم يا نومان) وقوله صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن الدوسي (يا أبا هريرة)[٣] مما يبين لطف وتلطف الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم. وفيه الجمع بين التلطف وبين الأمر الذي فيه عناء ومشقة.

ومن بلاغة النداء بصفة المزمل، ما ارتبط به من الغاية من النداء إلى قيام الليل ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ لوجود الترابط بين دلالة المزمل وبين دلالة قيام الليل التي تتطلب ترك ما أنت عليه من التزمل والتلفف بالثياب. فإن الأمر يتطلب ترك التزمل وقيام الليل. فظهر سياق الخطاب في أجمل ما يكون من التناسق في السياق، وفي البيان، وفي المقصد والغاية. وهذا من الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، والتناسق بين الغاية وبين ألفاظ البيان الكريم.

ثم بعد التعميم بقيام كامل الليل إلا قليلاً منه، ينتقل البيان والخطاب الكريم بعد ذلك إلى تفاصيل تفاوت هذا المقدار في الكثرة والقلة. فقال تعالى ﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾ فعليك بنصفه ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ أي: أن يكون القيام ما يعادل نصف الليل. ثم مراعاة للأحوال من الرحمن الرحيم، قال سبحانه وتعالى ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾ أي: أو أن تُنقص من النصف وقتاً يسيراً. ثم ذكر تبارك وتعالى الخيار الآخر، والمساحة التي يكون فيها قيام الليل، فقال تعالى ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ أي: أو زد على النصف. وهنا لم تُحدد الزيادة، لتشمل مقدار ما تستطيع. قال المفسرون: انقص من النصف إلى الثلث، أو زد عليه إلى الثلثين[٤] فجعل تبارك وتعالى له سعة في مدة قيامه.

مما يبين عظيم كرم الله تعالى في مراعاته للطبيعة والأحوال الإنسانية التي يكون عليها الإنسان، من غلبة النوم، أو المرض، أو التعب. مما يُعَلِّم المؤمن أنه إذا كان الله تعالى، القاهر فوق عباده يراعي برحمته تقلبات الأحوال في الطبيعة البشرية، ومع رسوله صلى الله عليه وسلم، فإنه جدير بهم عند تكليف بعضهم البعض

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٢٠/١٢)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٤٤١)

(٣) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٦٤٥٢)

(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١١٣/٨)

مراعاة ذلك. كما يعلم هذا الأسلوب الرباني منهجية تحرير التكاليف وضبطها بما يتناسب مع تقلبات الأحوال. فإنه منهج رباني يعلم الإنسان بثريد من الفوائد الربانية. فالحمد لله رب العالمين على نعمة تكاليفه.

ثم قال سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ أي: وأوضح القرآن عند قراءتك له، تبياناً، وترسلاً، وبعضه على إثر بعض. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وبيّن القرآن إذا قرأته تبياناً، وترسل فيه ترسلاً. وعن مجاهد رحمه الله تعالى: بعضه على إثر بعض[1] بما يفيد: التؤدة، والتمهل، وبيان الحروف والوقف عند الوقف.

وقد أفاد قوله تعالى ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ أي: بينه وفصله تبياناً وتفصيلاً واضحاً. والترتيل في القراءة يشمل وضوح المضمون والمحتوى، ومجوداً بإقامة حروفه، وضبط الوقف والوصل. ومن دقائق البيان أن الله تعالى أكد ذلك بصيغة المفعول المطلق ﴿ تَرْتِيلًا ﴾ فلم يكتف البيان الكريم بدلالة ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ بل أكده عَزَّ وجل بالمفعول المطلق. فهو بيان قد استوفى كمال تلاوة القرآن الكريم من كل وجه، ترتيلاً، وإفصاحاً وبياناً ووضوحاً، لأنه كلام الله العزيز الحكيم.

وبعد الأمر من الله تعالى بقيام الليل، وترتيل القرآن ترتيلا مجوداً يخبر جَلَّ جلاله بما يتبع هذا الأمر، وما يترتب عليه. فقال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ إنا يا أيها الرسول سوف ننزل عليك ﴿ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ أي: قولاً ليس سهلاً ولا بسيطاً، بل إنه مُتَّصِف بصفة الثقل. وهو القرآن العظيم، الذي استوعبت دلالة ﴿ ثَقِيلًا ﴾ جميع مفردات أوجه دلالاتها: فاستوعبت ثِقل نزوله على النبي صلى الله عليه وسلم، وثقل بركته، وثقل العمل به، وثقل ثوابه. ولذلك قال العلماء في دلالة قوله تعالى ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ أنه ثقل نزوله، كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فَيَفْصِمُ عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً[2] وقال القرطبي رحمه الله تعالى: يثقل حمله، لأن الليل للمنام، فمن أمر بقيام أكثره لم يتهيأ له ذلك إلا بحمل شديد على النفس[3] فيتطلب قوة من المجاهدة، وقال قتادة رحمه الله تعالى: ثقل والله فرائضه وحدوده. وقال ابن زيد رحمه الله تعالى: هو: والله ثقيل مبارك، القرآن، كما

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/٣٦٢-٣٦٤)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٢) ومسلم، صحيح مسلم، برقم (٢٣٣٣)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩/٢٦)

ثَقُل في الدنيا ثَقُل في الموازين يوم القيامة. ورجح ابن جرير رحمه الله تعالى: ثِقَل محمله، ثقيل العمل بحدوده، وفرائضه[١] فاستوعب البيان الكريم جميع تلك الأوجه. فإن له ثِقل لأنه كلام الله العزيز الحكيم. وله وزن وثقل في نزوله، وعلى الذي نزل عليه صلى الله عليه وسلم. فقد كان شديد الثقل على النبي صلى الله عليه وسلم حين ينزل الوحي عليه. وكذلك لِثقل وزن بركته، فإن ثوابه عظيم الوزن والثقل، إذ أنه بكل حرف يقرأه القارئ له حسنة. وكذلك يشمل ثقل القيام والعمل به. وكذلك فإن له وزن وقيمة ومنزلة رفيعة بقوة أسلوبه، ومعانيه، وبلاغته، وجزالته، وأحكامه وفرائضه، وأخلاقه وآدابه. وثقيل في منافعه، التي لا تُعَد ولا تُحصى. فاستوفت جزالة الأسلوب جميع تلك الأوجه من غير تعارض ولا تضاد، مما أغنى عن تكرار السياق بعدد تلك الأوجه، وهذا من غزارة وبلاغة البيان الكريم، وإعجاز بناء سياقه.

ثم يخبر الله تعالى بمنزلة وقيمة قيام الليل، فقال تعالى ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴾ إن قيام الليل أشد تأثيراً في القلب. فدلالة ﴿ نَاشِئَةَ ﴾ من الحدوث والنَّشء والابتداء. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: النفس الناشئة بالليل التي تنشأ من مضجعها إلى العبادة، أي تنهض وترتفع، من نشأت السحابة إذا ارتفعت[٢] وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى عن ﴿ نَاشِئَةَ ﴾ أنها وصف من النشء، وهو الحدوث[٣] وفي تسميتها ﴿ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ ﴾ على اعتبار الإنشاء لها من المصلي، الذي أقامها طاعة لله تعالى. ومن دقائق البيان أن الآية الكريمة ابتدأت بحرف ﴿ إِنَّ ﴾ الذي أفاد توكيد ما بعده من البيان.

قال ابن كثير رحمه الله تعال عن قوله تعالى ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ ﴾ أن ناشئة الليل هي ساعاته وأوقاته، وكل ساعة منه تُسمَّى ناشئة ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا ﴾ أي: أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة، ولهذا قال تعالى ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴾ أي: أجمع للخاطر في أداء القراءة، وتفهمها من قيام النهار، لأنه وقت انتشار الناس[٤] وقد أفادت دلالة ﴿ وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴾ أن ذلك القيام في الليل هو أخلص للفهم والتدبر، إذ يتفرغ القلب للتلاوة والتدبر، فلا ينشغل بغيره من المشاغل. وفي هذا بيان لعلة وسبب فضل قيام الليل.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/٣٦٥-٣٦٦)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٤/٦٣٨)

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٢/٢٢٦)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٤٦٤)

مما يبين أن منهج الله تعالى قائم على التحفيز بالبيان للعلل والأسباب التي تقتضي الفعل أو القول، أو الانتهاء عن أمر. بما يعلم المؤمن منهجية التعليل عند التوجيه، فإنها أدعى للالتزام والأداء.

وبعد توجيه الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بما يكون عليه في الليل من العبادة، يخبر سبحانه وتعالى بما له في النهار من الاشتغال بأموره وحاجاته، وعلى رأسها شأن الرسالة بالدعوة إلى الله عَزَّ وجل. فقال تعالى ﴿ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ فإن لك أيها الرسول في النهار سعة طويلة من الوقت. بما يفيد أن لك في النهار ما تستكمل فيه شؤونك وأمورك، لتشمل أموره الخاصة والعامة صلى الله عليه وسلم، والتي على رأسها مسؤوليات النبوة والرسالة.

ومن الفوائد الدلالية لقوله عَزَّ وجل ﴿ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ أنها بمعنى المتسع من الوقت. قال القرطبي رحمه الله تعالى: وقيل: السبح: الفراغ، أي: إن لك فراغاً للحاجات بالنهار، والتسبيح التمدد، ذكره الخليل. وعن ابن عباس وعطاء: ﴿ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ يعني: فراغاً طويلاً لنومك وراحتك، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك. وقال الزجاج: إن فاتك في الليل شيء، فلك في النهار فراغ الاستدراك(١) وقال الضحاك رحمه الله تعالى: فراغاً طويلاً(٢) ومن مزيد فوائد معنى السبح: أنه التخفيف، وسَبَخَ الحر: فتر. وهو النوم الشديد، وتوسيع القطن بنفشه، وهو التردد والدوران. والسَّبْخ السكون. فالسياق هو الذي يحدد المقصد المراد.

ثم يُوجِّهُ اللهُ تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم إلى المداومة على ذكره عَزَّ وجل. فقال جَلَّ شأنه ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ أي: وأكثر من ذكر الله تعالى بالنهار أيضاً ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ أي: وأخلص وانقطع إليه إخلاصاً. قال مجاهد أخلص له إخلاصاً. وقال ابن قتيبة: انقطع إليه. من قولك بَتَّلْتُ الشيء: إذا قطعته. وقال الزجاج: انقطع إليه في العبادة. ومنه قيل لمريم: البتول، لأنها انقطعت إلى الله عَزَّ وجل في العبادة(٣) مما يبين أن حياته صلى الله عليه وسلم كانت لله تعالى. بما يفيد أهمية التأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم.

ومن دقائق البيان أن الله تعالى أكد ذلك الإخلاص بصيغة المفعول المطلق ﴿ تَبْتِيلًا ﴾ فلم يكتف البيان الكريم بدلالة ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ ﴾ بل أكده عَزَّ وجل بالمفعول المطلق ﴿ تَبْتِيلًا ﴾ لتأكيد وجوب تحقق

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٩/١٩)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٧٦/٢٣)
(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١١٥/٨)

الإخلاص. فهو بيان قد استوفى وجوب تحقيق كمال الإخلاص من كل وجه، وفي كل أمر لله العزيز الحكيم. مما يبين ويدل على أهمية الإخلاص، وأن يجعل المؤمن حياته لله تعالى، بالعمل الصالح، وكثرة الذكر لله عَزَّ وجل، والنية الصالحة التي يتحول بها العمل المباح إلى طاعة. كمن ينوي بنومه أن يتقوى به على طاعة الله تعالى فيكون نومه عباده، فيحتسب في نومه ما يحتسبه في يقظته.

ثم يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يفوض أمره إلى ربه عَزَّ وجل، بالتوكل عليه، مبيناً أنه جَلَّ جلاله هو رَبُّ المشرق والمغرب. فقال عَزَّ وجل ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ فإن الله رب العالمين هو ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ﴾ الذي تُشرق منه الشمس، فيظهر به ومن جهته النهار، وكذلك هو رب المغرب ﴿وَٱلْمَغْرِبِ﴾ الذي تغيب منه الشمس، فيأتي الليل بظلامه. ثم بعد بيانه سبحانه لكمال ملكه للكون كله، من مشرقه إلى مغربه يعضد ذلك بما يستلزمه من توحيده جَلَّ جلاله ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فليس هناك رَبٌّ ولا إله سواه عَزَّ وجل. فأخلص العبادة له وحده لا شريك له. وهو أيضاً توجيه للناس في شخص النبي صلى الله عليه وسلم. فالأمر للنبي صلى الله عليه وسلم هو رفع لمقام المأمور به. فإن شأن التوحيد عظيم، وذلك بإفراد الله تعالى بالربوبية والألوهية، والعبادة الخالصة له جَلَّ جلاله.

فإن ربكم هو الله الذي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى. بما يدل على بطلان جميع أنواع الشرك. فلا معبود بحق، ولا رب ولا مالك للكون كله إلا هو تبارك وتعالى. وهذا بيان بانفراده سبحانه وتعالى بالألوهية ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فقرر عَزَّ وجل أنه هو المعبود الحق وحده لا شريك له، وذلك بحصر العبودية فيه عَزَّ وجل، فلا إله غيره، فنفى كل إله ومعبود غيره سبحانه وتعالى، وحصر العبودية فيه وحده لا شريك له. فلا يُعبد إلا هو جَلَّ جلاله، مما يفيد أن مَنْ عبد غير الله تعالى فقد كفر بربه وخالقه عَزَّ وجل. وقد تضمنت ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ نفي الألوهية عن غيره عَزَّ وجل ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ فلا إله غير الله تعالى، وأفاد هذا النفي: القطع والجزم بأنه لا ألوهية لأحد غيره سبحانه وتعالى، ثم حصر الألوهية له عَزَّ وجل ﴿إِلَّا هُوَ﴾ فكل مألوه غير الله تبارك وتعالى باطل من أصله، فلا يوجد إله غيره سبحانه وتعالى، فمن عبد غير الله تعالى فقد كفر بربه عَزَّ وجل. ودلالة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تُعَلِّم العباد بأن العبادة لا تُصرف إلا له عَزَّ وجل، وبالتالي لا تصلح العبادة إلا لله وحده لا شريك له، فعليكم أيها الناس بعبادة ربكم وحده لا شريك له.

ثم بعد تقرير توحيده وإفراده بالربوبية ثم الألوهية، يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يعتمد عليه، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴾ أي: وفوض إليه أمرك، واعتمد عليه جَلَّ جلاله. ومن دقائق البيان في هذا التوجيه الكريم أن الأمر باتخاذ الله تعالى وكيلاً قد ورد مطلقاً، لِيعِمَّ به جميع الشؤون الحاضرة، والمستقبلة، والصغيرة والكبيرة، وفي الجلب والدفع، من الخير أو الشر. وهو توجيه للمؤمنين من خلال رفع مقام التوجيه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وبما يفيد الاقتداء به عليه الصلاة والسلام في توكله على ربه عَزَّ وجل.

ثم يعطف الله سبحانه وتعالى على التوكل عليه الأمر بالصبر على ما يجده عليه الصلاة والسلام من أذى المشركين له. فقال تعالى ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴾ واصبر أيها الرسول على ما يقوله المشركون من القول المؤذي، من الإساءة فيك وفي دينك، وفي كتاب ربك سبحانه وتعالى. واهجرهم بالتباعد، كلما اقتضت الحاجة إلى ذلك. وقد تضمن التوجيه الكريم الأمر بالصبر، وبيان منهجية التعامل الضابط لحالات التصرف والتعامل معهم.

وقد بدأ البيان الكريم أولاً بفعل الأمر ﴿ وَٱصۡبِرۡ ﴾ الذي يقتضي الوجوب في القيام به. فيا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم عليك بلزوم الصبر على قومك، فيما تواجه منهم، من التعنت والسخرية. ومعنى الصبر: أنه نقيض الجزع. وهو: حبس النفس عن الجزع. وأما التصبر فهو: تكلف الصبر[1] وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى: هو خُلُق فاضل، من أخلاق النفس. يمتنع به من فعل ما لا يَحْسُن، ولا يَجْمُل. وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها، وقوام أمرها[2] مما يفيد ويُعَلِّم المؤمن أن عليه في مواجهة الصعاب بالصبر، ومقابلة ما يحدث من غيره له بالروية والصبر، المتضمنة للحكمة، والبعد عن الغضب، الذي يبدد العلاقات، ويبدد أو يعطل تحقيق الأهداف. فإن الصبر خُلُق يتعايش به الحكيم مع غيره. ويسأل الله تعالى العون والتوفيق والسداد، فهو خير مُعين على بلوغ الحق والخير. كما يبين هذا أهمية الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم، من خلال سيرته العطرة.

وفي دلالة ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ ما يبين أنهم كانوا يقولون في حقه صلى الله عليه وسلم، وفي حق دينه ما لا يُحتَمَل. فقد قالوا: ساحر، وكاهن، ومجنون، وكذاب. ثم عطف على هذا الأمر بالصبر أمراً

(١) ابن منظور، لسان العرب (٤/٤٣٨-٤٣٩)

(٢) ابن قيم الجوزية، عدة الصابرين، ص (١٦)

آخر، يتحقق به التباعد المنضبط، والذي تتحقق به المصلحة. فقال تعالى ﴿ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ والهجر هو الترك، والبعد، وعدم الكلام معهم. لأن الهجر قطع المكالمة والحديث بين المتهاجرين.

ومن عظيم منهج الله تعالى أن وصف نوع هذا الهجر بأنه ﴿ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ والهجر الجميل يتضمن أمرين: أحدهما: متعلق بالفاعل له، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم. بأن لا تشتغل في نفسك بما ترد به عليهم، ولا تجزع، وتوكل على الله تعالى، وفوض أمرك إليه عَزَّ وجل. وأما الأمر الثاني: فهو متعلق بمن يهجرهم عليه الصلاة والسلام. فلا تتعرض لهم بما يستثيرهم، وبمجازاتهم. واستخدم الهجر كلما دعت الحاجة إليه. بحيث لا تتأثر دعوته عليه الصلاة والسلام لهم، بل تستمر بالحكمة التي فيها شيء من التباعد، كلما احتدم الأمر. وهذ كان في أول الدعوة والبعثة، قبل الأمر بالقتال. مما يبين أهمية الحكمة، وأن الله تعالى قادر عليهم، وعل ألا يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر والهجر. ولكن هناك هدف يُراد تحقيقه، وهناك سبيل الحكمة، التي تقوم على الصبر، والهجر. مما يعلم المؤمن منهجية التعامل بذلك كلما اقتضت الحاجة. ليكون حكيماً في تعامله وتصرفاته. وأن استثارة الأعداء ليست مطلباً للداعية والحكيم. بل إن تحقيق الهدف والمراد هو الأصل والهدف.

﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا
أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا
عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ
إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ
فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ﴾

وبعد أن أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم باستخدام الصبر، والهجر الجميل للمكذبين الذين يؤذونه عليه الصلاة والسلام، يخبره سبحانه وتعالى بأن يترك أمرهم له عَزَّ وجل، فهو الذي يتولى شأن تمردهم.

فقال تعالى ﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ فاترك لربك سبحانه وتعالى، أمر من يكذب بك، ويكذب بهذا القرآن العظيم، فإن ربك سيتولى أمرهم وعقابهم، بما يفيد قوة التهديد من الله العزيز الحكيم لهم. فقد أفاد قوله تعالى ﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ الكفاية لك منهم: فقد كفيناك أمرهم أيها الرسول صلى الله عليه وسلم، فسوف نتولى تدبير عقوبتهم. مما يبين ويدل على عظيم ما سينال هؤلاء المكذبين من العقوبة والنكال.

وقد سماهم الله تعالى ﴿ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ ﴾ أي: أرباب السعة في الرزق، والرفاهية والسعة التي يتقلبون فيها، في هذه الحياة الدنيا. وأيضاً نعمة ما جاءهم من الحق ببعثته صلى الله عليه وسلم، وأنه منهم، ونعمة القرآن

العظيمة الجليلة. ثم يزداد التهديد تهويلاً وقوة لهم، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ أي: تريث عليهم قليلاً، بما يفيد أن العقوبة حاصلة عليهم بعد زمن يسير. فقد وصف الله تعالى زمن هذا التريث بالقليل المؤكد، حيث جاء بصيغة المفعول المطلق ﴿ قَلِيلًا ﴾ لإفادة تأكيد ما طُلِب منك، بأن تذرهم لربك. فإنه سينالهم العقاب الشديد. وقد كان ذلك في غزوة بدر. مما يبين عناية الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم، ونُصرته له ولدينه، ورفعة وعلو شأن هذا الدين. وأن الله تعالى بالمرصاد لمن حارب هذا الدين وأهله. لأنه سبحانه وتعالى قوي عزيز.

ثم يُعَلِّل سبحانه وتعالى ذلك بقوله عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴾ لأن لهم عند ربك في الآخرة عذاباً شديداً، على ما سينالهم من عذاب الدنيا ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴾ أي: عقوبة بالقيود والنار. فهناك عقوبتان متزامنتان تنتظرهم: أحدهما: ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا ﴾ أي: عقوبة بالقيود الثقيلة، التي تُكَبلهم وتقيدهم بها، والثانية: ﴿ وَجَحِيمًا ﴾ وهي النار المستعرة من قوة وقودها، فهي شديدة التوقد، والاستحكام والتسلط عليهم، حيث يُحَرَقُون فيها. مما يبين شدة الإنذار والتهديد بما سيناله من يكفر بالله تعالى، وبدينه القويم.

وإضافة إلى ذلك العذاب، فسينالهم أيضاً من أنواعه في الآخرة ذلك الطعام المؤلم. فقال الله تبارك وتعالى ﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أي: طعاماً كريهاً، لا يسوقونه، ولا قدرة لهم على استطعامه وبلعه، لأنه ﴿ ذَا غُصَّةٍ ﴾ أي: يتلكأ ويتوقف في الحلق، فلا ينحدر بسهولة في مساره إلى المعدة. وقد ورد في نوع هذا الطعام أنه الزقوم، والغسلين، والضريع. كما في سورة الدخان ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴾ وهي الشجرة التي أنبتها الله تعالى في جهنم. وقوله تعالى في سورة الحاقة ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ وهو صديد أهل النار، مما يخرج من لحومهم. وقوله تعالى في سورة الغاشية ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ ﴾ شجر في جهنم من الشوك.

ثم يزداد التعنيف للمكذبين بالمزيد من العذاب غير ما ذُكر، فقال تعالى ﴿ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ فإضافة إلى ما تم ذكره، فهناك أيضاً العذاب المؤلم، بما يفيد أنه نوع آخر، غير الذي تم بيانه. فكما كانوا متجاهلين للدين في تنعمهم، حال حياتهم الدنيا، فسيكونون في عذاب مقيم في الآخرة، لا ينفك عنهم. ليعطي بذلك المزيد من

التحذير للكافرين من عقابهم يوم القيامة، فاغتنموا حياتكم الدنيا بالاستسلام والانقياد والطاعة لله عَزَّ في علاه. وهذا من عظيم وعظ الله تعالى للكافرين.

ثم يذكر سبحانه وتعالى موعد عذاب الآخرة، بأنه حين تقوم القيامة. فقال تعالى ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ يوم تتزلزل وتضطرب الأرض، ومعها الجبال الراسية، فتتزلزل زلزالاً واضطراباً شديداً، ومتلاحقاً، فتصبح ﴿ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ أي: رملاً متجمعاً ﴿ مَّهِيلًا ﴾ أي: ينهال صباً متساقطاً على بعضه البعض. قال القرطبي رحمه الله تعالى: المهيل: الذي يمر تحت الأرجل. وقال الضحاك، والكلبي رحمهم الله تعالى: أن المهيل: هو الذي إذا وطئه بالقدم زل من تحتها، وإذا أخذتَ أسفله انهال[١] مما يبين شدة زلزلة يوم القيامة، وتغير أحوال الأرض والجبال عما كانت عليه. وهذا البيان هو من رحمة الله تعالى، إذ يبين للناس الشأن القادم إليه العباد، ليعطي ويفيد التحذير بالبيان الدقيق. لمن أراد أن يستقيم.

ثم ينتقل الخطاب من الله تعالى بالتخصيص إلى الكفرة المشركين، مبيناً لهم: أنه كما أرسل ربكم نبيه موسى عليه الصلاة والسلام رسولاً إلى فرعون، فقد أرسل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم إليكم رسولاً. فقال تعالى ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ فقد أرسلناك إليكم يا مَن بُعِث فيكم محمد نبياً ورسولاً صلى الله عليه وسلم بالرسالة، ليكون ﴿ شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ ﴾ يشهد بتبليغكم رسالة ربه إليكم، ويشهد لمن آمن، ويشهد على من كفر. كما قال تعالى في سورة النساء ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ وجئنا بك أيها النبي على من بُعثت فيهم، لتشهد عليهم بما كان منهم. وفي هذا التخصيص رفع لذكر وشأن النبي عليه الصلاة والسلام.

فقد بعثنا لكم محمداً صلى الله عليه وسلم رسولاً إليكم، كما بعثنا رسولنا موسى عليه السلام من قبل إلى فرعون ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ وبالتالي فأين وجه الاستغراب منكم؟ فقد أرسلنا لكم بمثل ما أرسلنا من قبل إلى فرعون رسولاً. فأين وجه النكارة منكم؟ فجاءكم من تعرفونه وتعلمونه. وقد تَوَحَّد البيان في ورود الرسول إليهم والرسول إلى فرعون من غير تسمية لهما بالاسم عليهما الصلاة والسلام ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ لتأكيد أن المقصد هو الرسالة والرسول، وأيضاً تأكيد

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩/٣٢)

المطلوب منكم تجاه الرسول الذي أُرسل إليكم من ربكم كما هو الرسول لفرعون الذي تم إهلاكه وقومه بناء على تكذيبه لرسولنا. فكان بناء السياق غاية الإعجاز في تحقيق المقصد والمراد.

كما أن في إيراد البيان من غير التسمية لموسى عليه السلام هو لمعرفتهم بذلك، وأيضاً لإبراز أن محور الأمر هو المهمة التي يحملها الرسول عليه الصلاة والسلام، فإنها هي المقصد، وهي الرسالة والرسول، بصرف النظر عمن يكون. لشد الذهن والفهم نحو حقيقة المهمة. وتسليط التفكير على حال فرعون كذلك، الذي أهلكه الله تعالى بالغرق لتكذيبه موسى عليه الصلاة والسلام. كما أن في اختيار فرعون من بين غيره من الأمم؛ ما يبين أن عنادكم مشابه لعناده، ومع ذلك أهلكناه بالغرق كما تعرفون. وكذلك فيه لفت الانتباه لليهود في المدينة عما يعرفون. فإن المقصد هو أن لا تكونوا مثله.

ثم ينقلهم البيان الكريم مباشرة إلى الغاية والهدف من سياق شأن فرعون، وذلك بإظهار مَا كان من كفره، وعناده، ثم ما حل به من العذاب والهلاك من الله تعالى. فقال عَزَّ وجل ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ فقد كَذَّبَ فرعونُ بالحجج والبراهين، وعصى الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم يؤمن بما جاء من الحق. فإنكم تماثلتم مع فرعون في معصية الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ فعاقبناه عقوبة شديدة بالغرق. ليفيد: فاعتبروا به قبل أن يأخذكم العذاب. فقد تماثلتم معه في معصية الرسول صلى الله عليه وسلم، فهل تريدون أن تتماثلوا معه في الهلاك بالعقوبة التي تحل بكم؟ وفي هذا وعظ وإنذار عظيم لهم من الله تعالى.

ومن دقائق البيان الكريم أن الله تعالى لم يذكر عقوبته لفرعون بالغرق، بل قصر البيان على شدة الأخذ ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ لأنه هو المقصد، ولإظهار اختلاف نوع العقوبة عما سيكون لهم. وقد أورد سبحانه وتعالى العذاب بالأخذ ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ ﴾ الذي أفاد: كمال القوة والقدرة التي استوعبها الأخذ. فأصبح في قبضة قدرته جَلَّ شأنه. ثم وصف هذا الأخذ بأنه ﴿ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ أي: أخذناه أخذاً قد اتصف بكمال الشدة، وهو الأخذ الوبيل. فقد أهلكه مَنِ اتصف بكمال العزة مع كمال القدرة التي تستوفي كمال إرادته سبحانه وتعالى بما يريد، وبما يشاء. وبما يفيد اعتبروا أيها المشركون بما كان من ربكم مع فرعون وقومه، فلا تتعاظموا على رسولكم محمد صلى الله عليه وسلم حتى لا يأخذكم ربكم بما تستحقون من العذاب، كما أخذ فرعون وقومه. فهو تحذير لكل طاغية بكفره، بأن الله تعالى للجاحدين بالمرصاد والانتقام.

وبعد بيان الله تعالى لعذاب الدنيا، ينقلهم إلى ما بعده من العذاب في الآخرة. فينتقل بهم الوعظ الكريم إلى بيان كمال عجزهم يوم يرون أهوال يوم القيامة، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ

﴿ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ﴾ فكيف يمكن لكم أن تتحصنون، وتقوا أنفسكم عذاب ربكم إن بقيتم على كفركم. فإن من أهوال ذلك اليوم يشيب فيه الصغار من الولدان لشدة هوله وكربه. وهو سؤال يبعث النفس على التفكر والتعقل من هول عذاب يوم يشيب فيه شعر الصغير، الذي هو أبعد ما يكون عن الشيب. بما يفيد أنه يوم مهول، وأنه فوق ما يتصوره الإنسان، غير أن الوصف من الله تعالى أوقعه وكأن الْمُخَاطَب يراه. وهذا من إبداع بلاغة القرآن العظيم في الوصف والتهويل.

وقد ورد البيان بأسلوب الاستفهام، والسؤال الذي يقررهم ويستثير عقولهم بالحقائق المفزعة التي ستكون يوم القيامة، وما يتبعه من العذاب. فقد أورد البيان سبحانه وتعالى بأسلوب التهويل والتخويف والتحذير والتعظيم ليوم القيامة. فبدأه بأداة الاستفهام ﴿ فَكَيۡفَ ﴾ التي تشد الذهن والفكر إلى التأمل في العجز التام عن إيجاد الوسائل التي تحقق النجاة بالاتقاء من العذاب ﴿ فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ ﴾ كيف تجعلون لأنفسكم وقاية تتقون بها من ذلك العذاب ﴿ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ﴾ الذي إذا رآه الصغير من الولدان تشيب رؤوسهم له من شدة هوله، وهم أبعد ما يكونون عن المشيب لصغر أعمارهم، فكيف بكم إذاً؟

فإن دلالة ﴿ فَكَيۡفَ ﴾ إذا وردت في القرآن تشد أفهام وعقول المخاطبين لمقاصد الآية الكريمة، فيبحر الْمُخَاطَبُون بفكرهم للاتعاظ، حتى يتوصل به الْمُخَاطَب إلى الاعتبار بالدليل الذي ساقه القرآن عن حال ذلك اليوم، فهو استفهام سيأخذ بصاحبه إلى مشاعر التهويل من أحوال يوم القيامة. فكيف يصنعون؟ وكيف سيكون الحال؟ حين يحل بهم عذابُ الله تعالى. وهي تحمل كذلك استفهام التوقف والتعجب، والتأمل لموقف سيمر به هؤلاء إن لم ينقادوا لله تعالى ولرسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي ذلك استثارة للذهن بالتفكر في تبعات المآل، والتفكر في النتيجة، والتأمل فيما سيكون. فإنه أسلوب القرآن العظيم، الذي يستثير العقول، والأفئدة، والمشاعر ليتحقق الخير للنفس المتأملة المستجيبة للموعظة.

ثم يتدرج السياق الكريم في وصف ذلك اليوم الذي هو يوم القيامة، إلى بيان ما ستكون عليه السماء، من شدة هوله الذي تشيب له الولدان. فقال عَزَّ وجل ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ﴾ فإن السماء في ذلك اليوم ﴿ مُنفَطِرُۢ ﴾ أي: متصدعة، ومتشققة ﴿ بِهِۦ ﴾ أي: فيه. بمعنى: في ذلك اليوم، من شدته وهوله. ومن الفوائد البيانية أن ﴿ ٱلسَّمَآءُ ﴾ وردت هنا بصيغة التذكير، مع استعمال دلالة ﴿ بِهِۦ ﴾ التي تعني: فيه. قال الفراء رحمه الله تعالى: السماء، تُذَكَّر وتُؤَنَّث، وهي ها هنا في وجه التذكير[1]

[1] ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١١٧/٨)

وحين وقوع يوم القيامة تتشقق السماء بنزول الملائكة. ومن هيبة أهوال يوم القيامة، ونزول الملائكة فإنها تخشع وتتذلل من الخوف. مما يبين هول يوم القيامة، وخشوع كل شيء لله تعالى، لعظمة ذلك اليوم.

ثم يخبر سبحانه وتعالى أن الذي بينه لكم أيها المعاندون هو تذكرة واعظة لمن أراد أن يتخذ طريقاً إلى ربه، وإلى إنجائه من عذابه. فقال تعالى ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ إن ما سبق من البيان في هذه السورة آيات واعظات تُذكر الإنسان بما يجب عليه ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞ﴾ فقد أعطى اسم الإشارة ﴿هَٰذِهِۦ﴾ تنويه لِمَا تقدم من آيات السورة المباركة، وليفيد تعظيم ما ورد فيها. ومُؤَكِّداً ذلك بحرف التأكيد ﴿إِنَّ﴾ الذي سبقها، بأنه ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾ أي: تُذَكِّره بما يجب عليه من الطاعة والامتثال لله تعالى، وتبين له عواقب الكفر.

ثم بعد هذا البيان العظيم يعظهم الله تعالى بأسلوب الخيار، والمتاركة، بأن يترك لهم ما يختارونه، ويحاسبون على اختيارهم له. فقال تعالى ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ فمن أراد منكم أن يتخذ سبيلاً وطريقاً إلى طاعة ربه، فإن هذه التذكرة قد أوضحت وبينت المسلك والطريق.

وقد جعل الله تعالى لعباده اختيار الطاعة أو المعصية ﴿فَمَن شَآءَ﴾ حتى يُحاسب كل أحد بما اختار من الحق أو الباطل. ورجح لهم وحثهم على تخصيص اختيار السبيل والطريق الذي يتحقق لهم به النجاة، وهو طاعته جَلَّ جلاله، فقال عَزَّ وجل ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ فمن شاء اتخذ السبيل والطريق الذي يتحقق لهم به النجاة. بما يفيد التحضيض والحث لهم على اختيار سبيل ربهم، لأنه الطريق الأفلح لهم. فهو طريق وسبيل الله سبحانه وتعالى، وهداه المستقيم. بأن يُذعِنُوا لله عَزَّ وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم فيما جاءهم به من الحق. وهذا من عدل الله تعالى، بل زاد عن العدل برحمته لهم، بأن وعظهم بكل وجه يُوصلهم إلى الحق والخير والنجاة، ويجنبهم العذاب. ورجح لهم وحثهم على تخصيص اختيار السبيل والطريق الذي يتحقق لهم به النجاة، وهو طاعته جَلَّ جلاله ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ فالحمد لله رب العالمين على كريم فضله.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿٢٠﴾ ﴾

وبعد ذلك الوعظ الكريم من الله تعالى للمكذبين، ينتقل البيان إلى تخفيف ما أمر الله تعالى به رسوله صلى الله عليه وسلم في أول السورة من قيام الليل إلا القليل منه، وقد أتبع ذلك التخفيف بعظيم الامتنان على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين، بأن نقله من الوجوب إلى التيسير. فقال تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴾

إن ربك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم أنك وطائفة من الذين معك تجتهدون في قيام الليل إلا قليلا، كما أمركم. فتقومون ثُلُثَي الليل، وتقومون تارة نصفه، وتارة ثُلُثَهُ، تريدون بذلك أن تحققوا ما أمركم به ربكم، ولكن لا تستطيعون المواظبة على ذلك، بالقدر المطلوب منكم.

وقد ورد الخطاب من الله تعالى مباشرة للنبي صلى الله عليه وسلم بالتخصيص أولاً ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ ﴾ الذي أفاد التخصيص ابتداء به صلى الله عليه وسلم، مبتدئاً بحرف التأكيد ﴿ إِنَّ ﴾ ثم تلاه إظهار التمجيد للرسول صلى الله عليه وسلم، بالتعيين له عليه الصلاة والسلام ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ وبإضافته إلى ربوبيته سبحانه وتعالى، والمسبوق بنون التوكيد، المؤكدة لِمَا بعدها من البيان، بأن الله تعالى ﴿ يَعۡلَمُ ﴾ والذي ورد بصيغة الفعل المضارع المستمر، الذي يبين ويفيد استمرار علم الله تعالى الذي لا ينقطع، بأنه يعلم عَزَّ وجل ﴿ أَنَّكَ ﴾ أنت، لإفادة التعيين والتخصيص الذي يُعطي دلالة العناية المخصوصة به صلى الله عليه وسلم، والمسبوقة أيضاً بنون التوكيد ﴿ أَنَّكَ ﴾ الملتحقة والملتصقة بضمير الْمُخَاطَب عليه الصلاة والسلام، بأنك ﴿ تَقُومُ ﴾ أي: تؤدي، وتقيم الصلاة من الليل، كما أمرك الله تعالى بها.

ثم ذكر سبحانه وتعالى المقادير التي اجتهد النبي صلى الله عليه وسلم في القيام بها من الليل. فذكر اختلافها، فقال عَزَّ وجل ﴿ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ ﴾ أقل من ثُلُثي الليل، يعني الثلثين إلا القليل منه. والثلثين هي أغلب الليل. وأما الزمن الآخر في القيام أحياناً فهو ﴿ وَنِصْفَهُۥ ﴾ أي: أقل من الثلثين، وهو قائم يؤدي الصلاة. فيصلي عليه الصلاة والسلام نصف ساعات الليل. وأما الزمن الثالث: فهو ﴿ وَثُلُثَهُۥ ﴾ أقل من النصف. مما يُظهر شدة المعاناة في القيام. مع بيان قوة الطاعة، وبذل أقصى الجهد في الأداء والامتثال. ثم أسند إلى هذا البيان من كان معه من المؤمنين. فقال تعالى ﴿ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ أي: جماعة من المؤمنين الذين كانوا معه صلى الله عليه وسلم عندما فُرِض عليه قيام الليل. وقد أفاد قوله تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ ﴾ أنه قد علم ما كان منكم بدليل تحديد مقدار زمن ما كان من قيامكم، وأيضاً طاقتكم، وقدرتكم على ذلك.

ومن دلائل فقه السورة المباركة أن الله تعالى قصر الأمر بقيام الليل على النبي صلى الله عليه وسلم في مطلع السورة وافتتاحيتها، حيث قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فأفرد الأمر بالرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يذكر المؤمنين. بينما ذكر هنا تبارك وتعالى أن صحابته رضي الله عنهم كانوا يقومون معه الليل أيضاً ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ مما يفيد أن الأصل في الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم فشاركه المؤمنون، ما لم يكن خاصاً مخصوصاً به النبي صلى الله عليه وسلم. وأن الصحابة فهموا ذلك على أساس هذه القاعدة. فعملوا بها، ولم ينهاهم النبي عليه الصلاة والسلام عن ذلك. فتكون هذه قاعدة: بأن الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم هو أمر لجميع المؤمنين، ما لم يكن خاصاً مخصوصاً به النبي صلى الله عليه وسلم. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: فإن الله تعالى افترض القيام في أول هذه السورة، فقام نبي الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولاً، حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك اللهُ جَلَّ ثناؤه خاتمتها اثنى عشر شهراً في السماء، ثم أنزل اللهُ عَزَّ وجل التخفيف في آخرها، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة[1] مما يبين رحمة الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين، والذي كشف بهذا التخفيف أنه لو شاء لفرض عليكم ما لا تطيقون، ولكن من رحمته فرض عليكم اليسير من العبادة. فكان دين الله تعالى يسيراً في تكاليفه، مراعياً لأحوال عباده. فالحمد والشكر لله عَزَّ في علاه.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٧٦/٢٣)

ثم أوضح جَلَّ جلاله عن علمه وعن تدبيره لمقادير الليل والنهار. فقال عَزَّ وجل ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ فإن ربكم هو الذي يحدد مقادير الليل والنهار، وزمن ساعاته، وبالتالي هو الذي يعرفها على حقيقتها. بما يفيد أنه لا يفوته عَزَّ وجل شيء مما كان منكم من الاجتهاد في طاعته سبحانه وتعالى. وأن ربكم ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ لن تستطيعوا إحصاء قيامه، بضبط أوقاته. قال مقاتل رحمه الله تعالى: لن تطيقوا قيام ثُلُثَي الليل، ولا ثُلَث الليل، ولا نصف الليل[١] وبناء على هذا فإن من رحمة الله تعالى بكم، ومراعاة لِثقل ذلك، وعدم قدرتكم ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: خفف عنكم، ولا يؤاخذكم. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: إذ عجزتم وضَعُفْتُم عنه، رجع لكم إلى التخفيف. وهذا من عظيم رحمة الله تعالى، إذ أظهر رحمته بهم بالتخفيف بعد أن باشروا وقاسوا صعوبة ذلك. وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: عبارة عن الترخيص في ترك القيام الْمُقَدَّر[٢] وذكر القرطبي رحمه الله تعالى: أنه قال مقاتل وغيره: لما نزل قوله تعالى ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ شق ذلك عليهم، وكان الرجل لا يدري متى نصف الليل من ثلثه، فيقوم حتى يُصبح مخافة أن يُخطِئ، فانتفخت أقدامهم، وانتقعت ألوانهم، فرحمهم اللهُ تعالى وخفف عنهم[٣] ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ فعاد عليكم بفضله ومَنِّهِ سبحانه وتعالى بالتوبة، فأعادكم من فرض القيام إلى ما تيسر.

فوجههم سبحانه وتعالى إلى التيسير، فقال الرحمن الرحيم ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: فأقرأوا من القرآن في الصلاة بما تيسر عليكم منه. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: من غير تحديد بوقت، أي: ولكن قوموا من الليل ما تيسر، وعَبَّر عن الصلاة بالقراءة[٤] وفي هذا مراعاة من الرحمن الرحيم لأحوالهم، برفع ما يشق عليهم. ونقلهم إلى التخفيف والتيسير بما يستطيعون. فالحمد والشكر لله عَزَّ وجل.

ثم علل تبارك وتعالى أسباب التيسير بثلاثة أمور رئيسة. فالسبب الأول: المرض، فقال تبارك وتعالى ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ فقد علم ربكم أن منكم المريض الذي يشق عليه قيام ذلك الوقت، فلا يستطيع، فيعجز عنه. والسبب الثاني: السفر في طلب الرزق ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١١٨/٨)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٦٤٣/٤)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣٦/١٩)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٦٨/٤)

فَضۡلِ ٱللَّهِ ﴾ وهم المسافرون في طلب الرزق. فلا يستطيعون قيام الليل. والسبب الثالث: ﴿ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وهم المجاهدون للعدو في سبيل الله تعالى. فإن عملهم وأوقاتهم كائنة في سبيل الله تعالى، أي: في طريق ومنهج الله عَزَّ وجل. فشملت ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الهدف والغاية بأنها في سبيل الله تعالى، وأن ما يبذلونه من جهد فهو في سبيل ربهم عَزَّ وجل. وأعطت فائدة الإخلاص لله جَلَّ جلاله. فشملت المتابعة لمنهج الله عَزَّ وجل. إذ لا يكون الشأن في سبيل الله تعالى ما لم يتوفر فيه الإخلاص والاتباع. فهما شرطان لقبول العمل. وقد أظهر وأوضح هذا التخفيف عظيم رحمة الله تعالى بعباده، وأن هذا الدين يسر، وكل مؤمن هو أعلم بحال نفسه، والله تعالى هو العليم الرقيب على العباد، فيعلم من خصائصهم وخواصهم ما لا يعلمه غيره عَزَّ وجل.

فانتقل بهم التخفيف من الرحمن الرحيم إلى ما تيسر لهم من الاستطاعة. فقال سبحانه تبارك وتعالى ﴿ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ ﴾ أي: قوموا بما تيسر من القرآن ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ وهي الصلاة الخمس المفروضة. وقد أفادت دلالة ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي: أداء الصلاة وفق ما شرع لكم ربكم، وورد الأمر لها بفعل ﴿ وَأَقِيمُواْ ﴾ الذي جمع جميع ما تقوم عليه الصلاة، من الأركان والواجبات والمستحبات، بما يفيد الإقامة الخالية من الخلل. فلا تُخِلُّوا بها، بل أقيموها إقامة ذات عناية واهتمام. مما يبين أهمية الصلاة، إذ الغالب ما يقترن الأمر بها في القرآن بالإقامة. اللهم اجعلنا من المقيمين للصلاة على الوجه الذي يرضيك عنا. ثم تلى ذلك قوله جَلَّ شأنه ﴿ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أي: وأدُّوا الزكاة المفروضة عليكم لأهلها. وهذا من رحمة الله تعالى بالمستحقين للزكاة، إذ جعل سبحانه وتعالى في أموال الأغنياء حق واجب لهم عليهم، وليس تفضلاً. مما يغرس في الغني واجب البحث عن المستحقين، ويغرس في المستحق محبة الغني، بما أسدى إليه من المال. ليتحقق بذلك التواد والترابط والتكافل بين أفراد المجتمع.

ثم تدرج بهم سبحانه وتعالى إلى نوافل الأعمال من الإنفاق. فقال تعالى ﴿ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا ﴾ وهو ما يتنفل به المؤمن من الصدقات المتنوعة في أبوابها، وأنواعها ومقاديرها. فالذي يُقْرِض هو العبد، والمكافئ لهذا القرض هو الرب تبارك وتعالى. وهذا الإنفاق من العبد على صيغة الإقراض الْمُعاد، ولكن الإعادة هنا مختلفة عن إعادة البشر لبعضهم البعض، لأنها إعادة من مالك الملك. فالمفاضلة فيها عظيمة، بل ومربحة بلا حدود للمؤمن المقرض.

واشترط لهذا القرض صفة الإحسان ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ والقرض الحسن هو الذي يكون عن طيب نفس. ودلالة ﴿ حَسَنًا ﴾ تجمع كل جوامع الْحُسن في النية والإخلاص، وفي المقدار، والنوع، وطيبة النفس الممتلئة بالإيمان، والأدب والأخلاق في الإنفاق. كما أن دلالة ﴿ حَسَنًا ﴾ نافية لكل ما هو ضد الإحسان وصفاته ومعانيه. مما يبين عظمة الأسلوب في القرآن، وعظمة الآداب والأخلاق في منهج الله تعالى. بل وتشمل دلالة ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ جميع أنواع الإحسان للآخرين، والذي لا حدود لمقداره، ولا لأنواعه، وحالاته. فإن الله تعالى يحب المحسنين.

ثم بعد التخصيص يُورد سبحانه وتعالى التعميم بفضل وأجر جميع ما يقوم به المؤمن من أفعال الخير، فقال تعالى ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ فما تقومون به من خير في الدنيا، من أنواع الطاعات والنوافل والصدقات والبر والإحسان، فإنما تقدمونه لأنفسكم في الآخرة عند الله تعالى، فيثيبكم عليه ثواباً هو خير مما قمتم به في الدنيا ﴿ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا ﴾ أي: أفضل مما قدمتموه في الدنيا ﴿ وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ أي: وكذلك أعظم ثواباً وجزاء مما قمتم به في الدنيا.

ومن جزالة البيان الكريم أنه سبحانه وتعالى لم يحدد نوع ما يقدمونه، ولا مقداره من قليل أو كثير، إذ جعله مطلقاً لعموم الخير ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ ﴾ ليستوعب ويشمل جميع مفردات الخير، وأنواعه وأشكاله، ومقاديره، فيدخل في ذلك الفرائض، وصلوات التطوع، والصدقات، وصنائع المعروف، والإحسان بالمال والجاه، ومخالقة الناس بالخلق الحسن، والإعانة بكل وجه، فقد شمل الخير كل مفرداته وأنواعه. وهذا من عظيم فضل الله تعالى، بما يربي المسلم على السخاء، والتكاتف مع غيره من المسلمين، وإعانة المحتاج، والوقوف معه في نوائبه، وحاجاته المختلفة. كما أن في ذلك لطف من الله تعالى بأهل الحاجات، فجعلهم سبباً في رفع الدرجات. كما أن هذا المنهج الرباني يغرس ويؤسس العلاقة القوية بين المؤمنين، ويظهر لهم قوة حاجتهم لبعضهم البعض. حتى أن صاحب اليسر هو في حاجة وفقر لغيره من المحتاجين، ليكسب بإعانتهم عظيم الأجر من الله تعالى. كما ورد تقديم الخير بصيغة التبعيض ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ ﴾ ليستوعب التنوع، واختلاف القدرات فيما يقدمه المؤمنون.

ومن دقائق المكافأة في الجزاء أنه سبحانه وتعالى لم يحدده بحد محدد ومعين، وإنما أورد فيه الخيرية ﴿ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا ﴾ التي تستوعب درجات، الأفضلية. وأضاف إليه عزَّ وجل ﴿ وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ وأعظم ثواباً وجزاء مما قمتم به في الدنيا. فوردت مطلقاً من غير تحديد. ليفيد الكثرة منه سبحانه وتعالى بأضعاف

غير محددة، لا يحصيها إلا الله تبارك وتعالى. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وله ثواب وجزاء كريم، يعني بذلك الأجر: الجنة[١] ويُستفاد من ذلك أهمية الكرم وسخاء النفس في العطاء، وأن يُحسن الْمُقْرِض مع من أقرضه من حيث المقدار، ومن حيث الوقت، والصبر، والإحسان، وكل ما يتعلق بأخلاق الإقراض الحسن. لأن هذا هو منهج الله تعالى الكريم الرحمن. وهذا يُفيد أهمية أن يتناول الداعية والمربي والناصح الدلالات القرآنية الكريمة، التي تدفع الإنسان للخير وتُبعده عن الشر، وتربي فيه خصال الخير ومكارم الأخلاق. والحمد لله رب العالمين.

ثم يختم الله تعالى سورة المزمل بالحث على كثرة الاستغفار. فقال تعالى ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ فعليكم بطلب المغفرة من ربكم، ليكفر عنكم خطاياكم، بمحوها عنكم، وسترها عليكم. وقد ورد بيان الاستغفار بفعل الأمر ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ ليفيد الوجوب. وذلك لكثرة غفلة الإنسان، وتقصيره، وأخطائه، وزلاته. فإن الله تعالى يغفر السيئات ويمحوها عن التائبين، فلا يعاقب عليها إذا أقلعوا عن ذنوبهم وتركوها، بل يمحوها ويسترها. فربكم ﴿غَفُورٞ﴾ أي: فإن الله تعالى مُتَّصِف بمغفرة الذنوب، فهو كثير المغفرة للعباد. وكذلك هو ﴿رَّحِيمُۢ﴾ فهو المتصف بالرحمة، والمبالغ فيها من غير تخصيص. بما يدل على كثرتها. أي: الْمُوصِل رحمته إلى خلقه أجمعين. فالرحيم باعتبار الفعل، هو الموصل رحمته إلى خلقه. مما يستحث به العباد على طاعته تبارك وتعالى، وهذا والله من عظيم كرمه ورحمته سبحانه وتعالى. إذ يرغبهم فيما يصلون به إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة.

وقد بدأ البيان بنون التوكيد ﴿إِنَّ﴾ لتؤكد ما بعدها من الإخبار والإعلام، ثم جاء لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ الذي يغفر ويرحم، ليعطي المغفرة والرحمة أعظم الدلائل، لأنها من الله عَزَّ وجل. كما أعطت دلالتها المبالغة في المغفرة والرحمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ فإن الله تعالى كثير المغفرة، وواسع الرحمة بعباده. وفي هذا زيادة الترغيب لهم في تصحيح أحوالهم، والانتقال بأنفسهم إلى الأكمل والأخير في كل شيء. مما يبين حكمة الله تعالى في معالجة قضايا العباد، وأنه رحيم ودود، يشجع ويدفع العباد إلى تصحيح الأخطاء، وأنها ليست حاجزاً، ولا عائقاً عن المغفرة والرحمة من لدنه تبارك وتعالى. فإن ربكم يصفح عن الأخطاء والزلات لمن استغفر وتاب، وعاد إلى الحق، وأنه سبحانه وتعالى يُكرِمُ عبادَه على طاعتهم بمغفرته لهم. فإنه منهج رباني عظيم، ليصنع مجتمعاً

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٩٧/٢٢)

يتنعم ويتمتع بنعمة الانقياد والصدق، والتآخي، والتفاعل مع الإصلاح والبناء الذاتي، وفي جميع أوجه الخير، ويشد بعضه بعضاً.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة المزمل. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.